البيت الكسير الفؤاد

« لبرنارد شو »

البيت الكسير الفؤاد هو اسم لأوربا قبل الحرب العظمى كما أنه اسم لهذه القصة ، ولعلك فطنت إلى الباعث على هذه التسمية، بل لعل ذهنك قد توجه إلى الناحية التي أراد المؤلف أن يتوجه إليها بتصويره وتحليله . ولقد عالج نفس الموضوع كثير من الكتاب واختلفوا في تصويره اختلافهم في التيار والشعور ، واختلافهم في المزاج ما بين متفائل ومتشائم . والذي يبدو — بعد تلاوة فصول هذه القصة — أن المؤلف متفائل بالرغم من تقززه من الواقع وسخطه عليه ونيله منه بالسخرية والتهكم ، لأن السفينة وصلت إلى بر السلامة ناجية من سيل الصواعق المنصب عليها .

* * *

في حجرة ما ، على صورة مؤخر سفينة قديمة جلست الآنسة إيلي تطالع كتاباً لشكسبير لتصد عن نفسها مخض الانتظار ، وهي مدعوة من صاحبة البيت ، ولكنها لم تجد إنساناً في استقبالها ولا خادماً يحمل حقائبها، فاضطرت للانتظار تخفف وطأته بالمطالعة ، وأخيراً يدخل الكابتن شوتوفر وهو صاحب البيت ووالد هسيون التي دعت إيلي لزيارتها ، وقد كان بحاراً ثم هجر البحر ليعيش مع ابنته وزوجها . وهو متقدم في السن شاذ الطباع ، فيستقبل الفتاة استقبالا غريباً، فاذا ما سمع باسم أبيها (مازيني دن) وهي تعرفه بنفسها، ظنه ذلك القرصان الذي سرقه قديماً، وهيناً حاولت الفتاة أن تقنعه بطهارة قلب أبيها وشرف نفسه .

وهنا تدخل لادي اترورد وهي الابنة الثانية للكابتن ، عائدة للبيت بعد غياب دام بضعة وعشرون عاماً أي من ساعة زواجها، وتظهر استياءها ولا تخفي ألمها من ذلك الإهمال . إذ كيف لا يحدث خبر قدومها أي حدث في ذلك البيت العجيب ؟... أين أختها الشقيقة لتقبلها وتطفىء بطلعتها لوعة الشوق ؟ بل ما بال أبيها يقف جامداً أمامها ويتكرهها ؟ وتتملكها الحيرة إذ يتجاهلها أبوها ويسح الدمع من عينيها ، ثم تدخل هسيون وتقبل على إيلي متهللة تقبلها وتعتذر لها عن غيابها بأنها كانت نائمة ! ثم تنظر إلى أختها وتتساءل من هذه ؟ ويضيق صدر أختها وتظهر لها شخصيتها وهي تتعجب من البيت الذي لاذت بزوجها منه وعادت إليه بعد هذه السنين ، فاذا هو واحد واحد في شذوذه واضطرابه، في غرابة أطوار أصحابه وخدامه، ولكن أختها لا تحفل بكل ذلك فتقابلها مقابلة باردة حتى إنها تضن عليها بقبلة لأنها لا تطيق

رائحة البودرة،هنا يحضر (مازيني دن) أبو إيلي ويعلم شوتوفر أنه ليس القرصان الذي سرقه، ويحضر مانجان خطيب إيلي ، وهو من رجال الأعمال الكبار إلا أنه متقدم في السن .

وتختلي مسز هاشاباي هسيون بايلي ، ويدور بينهما حديث حول زواج الفتاة بمانجان ، فاذا مسز هاشاباي تستنكره وتعجب له، وتدفع الأخرى اتهامات صديقتها قائلة: إن مانجان له أكبر الفضل على والدها لأنه أنقذه من الخراب ، وتتدرج الأخرى متطفلة على أسرار الفتاة حتى تكاد تثير غضبها ، ولكن الالحاح الشديد يكتسح عناد الفتاة فتزيح الستر عن قلبها وتصرح بأنها تعرف شاباً تعجب به وتحب قصصه التي يلخص فيها مخاطراته ،وهنا تسألها مسز هاشاباي « هل تحبينه ؟ »

إيلي « أوه! كلا لست حمقاء ، إني لا أقع في حب إنسان ، لست حمقاء كما تظنين »

مسز هاشاباي « إني لا أراه إلا شيئاً تفكرين فيه ، يجلب لنفسك مسرة وغبطة ؟ »

إيلي « أهذا كل ما هنالك ؟ »

مسز هاشاباي « شيء يجعل الساعات تمر سراعاً أليس كذلك ؟فلايكون ثمة انتظار ممل قبل الاستسلام للنوم . ولا تهيب من أن تكون ليلتك منغصة ؟ ثم إنه كيف يسبغ على اليقظة في الصباح جمالا ؟ كيف يفوق هذا الجمال أسعد الأحلام ؟ لقد تغيرت الحياة برمتها ، فلم تعد هنالك حاجة لقراءة كتاب شائق لأن الحياة بما تفيض به من ينابيع السعادة تزري بسعادة أي كتاب ، وانعدمت كل رغبة إلا الرغبة في الانفراد حيث لاتتحدثين إلى إنسان، فتبقين منفردة وتفكرين فيه » ، فتستخف إيلي حديث صديقتها وتدعوها ساحرة لاهتدائها إلى خفايا نفسها.

وبينما هما في حديثهما يدخل رجل متقدم في السن إلا أنه جميل فاتن، فتدهش إيلي إذ ترى فيه صاحبها راوية المخاطرات التي فتنتها، وتعرف فيه هسيون زوجها المتيد هكتور هاشاباي ! على أن الغيرة لا تسممها لأنها تؤمن بزوجها وبسلطانه وتقيم العذر من نفسها لأي امرأة تقع في شراكه . . . ولا يعبأ هكتور بالفتاة التي كذب عليها في قصصه الوهمية. ويغازل لادي ارورد ويكاد يفتن بها، أما إيلي فتنطلق مع نفسها في أجواء التفكير الحزين ، ويدفعها انكسار قلبها إلى اتهام هكتور ، ولكن زوجته تدافع عنه ، فهو شجاع إلا أنه يخترع من الحوادث الجليل الخطر ويضيف لنفسه ما لم يفعل .

ويحضر (مازيني دن) والد إيلي مصطحباً صديقه مانجان وخطيب ابنته،فتهرع إيلي إلى الكابتن شوتوفر وتقدم له والدها ليستوثق من أنه ليس ذلك اللص الذي ظن، ويقتنع الرجل المجوز، ولما يختلي بمانجان يدخل معه في محاورة قصيرة صريحة .

شوتوفر « هل أنت متقدم على زواج ابنة دن ؟ إنك متقدم في السن »

مانجان « حسناً ... إنه لخطأ جميل أيها الكابتن »

شوتوفر « بل هذا حقيق »

مانجان « هى لا تظن ذلك »

شوتوفر « بل تظنه »

مانجان « إن رجالا أطعن منى فى السن . . . . »

شوتوفر [مقاطعاً ومتمما لحديث الآخر] « . . . . تقع منهم المهازل . . . هذا حقيق أيضاً . . . ! »

مانجان « لا أحسب أن هذا مما يعنيك »

شوتوفر « بل هذا مما يعنى كل إنسان . . . إن النجوم فى أفلاكها لتضطرب لوقوع أمثال هذه الحوادث » ويغيبان مفترقين ، ويدخل الكابتن فجأة فيلقى ابنته مسز هاشاباى مع راندال شقيق زوج أختها الضيفة، ويراه وهو يقبلها ؛ ولما يهم الفتى بانتحال العذر لا يحفل الآخر به ولا بعذره ، ففى مثل سنه لا يعبأ الانسان بمعرفة اسم جديد ؛ أما ابنته فالجميع يقبلونها ؛ فلا محل للاعتذار !

ثم يلتقى هكتور بزوجه وإذا به مرتعد من عاطفة يحسها نحو أخت زوجه، وهولا يخفى عليها ذلك ؛ وهى من جانبها تتمنى له التوفيق وتتركه لتفتش إنساناً ما . . ويسألها هل تعنى راندال ؟ وتجيبه أنها تعنى مانجان لأنها أجدر به من إيلى ؛ وتتركه وحده حتى يدخل عليه الكابتن ـ والكابتن فى حيرة دائمة لأنه كما لم نذكر مخترع ـ وهو يحاول أن يكتشف شعاعاً نفسياً يلهب كل المخترعات بقوة عليا ! ولهذا فهو يثابر على العمل . . . وعنده كمية وافرة من الديناميت فى حفرة فى الحديقة ؛ وقد سأله هكتور :

« لماذا الديناميت ؟ »

شوتوفر « لأقتل أمثال مانجان » ، ولكن الآخر يدخل على قلبه اليأس من أمله ؛ فأمثال مانجان أقدر على شراء كميات من الديناميت أضعاف ما يحرز الكابتن ؛ ولذا يقول الآخر متحيراً :

شوتوفر « إذاً ماذا نصنع ؟ أنظل قابعين فى الطين بفعل هؤلاء الخنازير الذين يحسبون أن الدنيا ليست إلا عدة لحشو خراطيمهم ؟ » . هنالك تعود مسز هاشاباى وتتحدث إلى أيها قليلا ، وتطلب مالا ؛ لأن المال الذى يربحه من مخترعاته السلمية على جسامته لا يفى بحاجتها ؛ فهل له أن يخترع آلة تهلك نصف أوربا ؟ . . . ويخرجون جميعاً إلى الحديقة ليجلسوا إلى الزوار بعد أن اطمأنت السيدة إلى أن أباها سوف يخترع لها ما يغمرها بربحه . . . ويرى هكتور أن

شوتوفر جالساً إلى مائدته فى شبه ظلام فيقترح عليه أن يصوب نحوه نوراً فيجيبه « كلا ... هبنى ظلاما أعمق . . لأن المال لا يصنع . . . فى النور »

* * *

يبدأ الفصل الثانى بحوار طويل بين (مانجان) و (إيلى) خطيبته، وموضوعه خطبتهما ؛ فهو يتلهف على استكناه لواعج قلبها، وهى تصارحه بأنهما يصلحان لتكون أسرة وإن لم يفلحا فى أن يكونا (روميو) و (جولييت) ؛ فيقول الرجل فى نفسه لعلها متأثرة بملاظفتى قد أسديته لأبيها من جميل ، ويجمع أشتات عقله ويفضى إليها بدخيلة نفسه ويقنعها بالحقيقة، وهى أنه لم يمد يد المعونة لأبيها وإنما استعمله فى أغراضه المالية وتركه يتوهم أنه يسنده وينقذه من بين مخالب الخراب ، والحق أنه هو الذى تركه يهوى لأعماق الخراب ، فهل تقبل الزواج منه بعد ذلك ؟ ولشد ما تكون دهشته عظيمة عند ما توافق قائلة : إن أمها رضيت أن تتزوج من رجل شريف وفقير، نظيف اليد والجيب، وإنها لا ترغب أن تنهج نهج أمها!.. وهنا يسألها:

« هبى أنى أنبأتك بما كان من وقوعى فى حب امرأة أخرى ؟ »

إيلى « هب أنى أنبأتك بما كان من وقوعى فى حب رجل آخر ؟ »

مانجان (غاضباً) « لست أهذر »

إيلى « ومن أدراك أنى أهذر ؟ »

مانجان « اعلمى أنى جاد فيما أقول ، إنك لأصغر من أن تكونى رزينة ، والأحرى بك أن تصدقينى ، أنا أرغب فى أن أكون بجانب صديقتك مسز هاشاباى ... أنا مغرم بها..»

إيلى « أنا أرغب فى أن أكون بجانب صديقك مستر هاشاباى ... أنا مغرمة به. . . »

ورغم كل ذلك تطالبه بالزواج فيرفض فتهدده بأنها ستمنع تزاوره لمسز هاشاباى لو استهان بعهده وخطبته . وفيما هما يتحدثان تسلط عليه من عينيها ما يبعث النوم إلى جفونه ؛ فينام وتخرج هى ويدخل مازينى دن ومسز هاشاباى ، ويتحيران فى إيقاظ مانجان، ويرسل الأب فى طلب ابنته لأنه رجح أن تكون هى التى استهوته.

وهنا تتحدث مسز هاشاباى إلى مازينى معاتبة إياه : كيف يسمح أن تزوج ابنته من مثل هذا الرجل الملقى الذى لا يعرف فى الوجود غير عبادة المال وامتصاص الدماء البائسة فى سبيل أطماعه ؟ . فيصارحها بأنه يؤثر ذلك على أن يسامها ليد من يحبها ويعجز عن توفير الراحة لها ... ويغيب الرجل وترجع إيلى . . . وتشتبك فى حديث مع مضيفتها ؛ ولكنه حديث حار تنفثه كل منهما من صدر سودته الاحن والغيرة ، ولكن يرق ويهدأ فتفهم هسيون من إيلى

أن هذه تسعى وراء المال مادامت قد خسرت الحب ، وأنها تزهد فى الشبان والأغنياء لأنهم يجدون السبيل ممهداً للتخلص من زوجة ملوها بخلاف أمثال مانجان . . . ويشتد الخلاف بينهما ثانياً لأن هسيون ترميها بعبادة المادة والقسوة والجرى وراء جشعها، وتسألها هسيون ماذا تفعلين لو تصارعنا ؟ وتجيبها الأخرى بأنها لن تتردد عن شدها من شعرها، وكم تكون دهشتها مذهلة عندما تعلن لها الأخرى بأنها تخلع شعرها كل مساء ... ذلك الشعر الجميل مزيف !

وهنا يستيقظ مانجان ويفاجئهما بأنه كان فى نومه يسمع مايدور، وقد عرف ما فى نفس كل منهما نحوه، ويحدث أن يقع بين أيديهم لص كان يحاول سرقة جواهر لادى اترورد ؛ ويقول اللص للادى : هل تستطيعين أن تخلصينى من السجن مدى العشر سنوات التى سيحكم على بها ، حيث رددت إليك جواهرك ؟ وهنا يتمعضون من فكرة عقاب اللص ويهدد هو بتسليم نفسه لاراحة ضميره إلا إذا عرضوا عليه ذلك ... فيقبل طلبه وهو العفو .

ننتقل الآن إلى هكتور ولادى اترورد ورانداال ...فبين الرجلين نزاع سببه ما يكتوى به قلب راندال من نيران الغيرة ، ولكن لادى اترورد لاترتاح لأسلوب راندال ، فتمنعه حتى تتفجر الدموع من عينيه ... فيرق له هكتور ويعزيه بالكلام على سحر زوجه وأختها ، ويرفع يديه إلى السماء مستعيذاً بالله من النساء !

* * *

الفصل الثالث : نحن الآن فى الحديقة وجميع من مر علينا من الأشخاص جالسون يتحدثون وتتطوح بهم الأحاديث ، وكان بيت الكابتن من المواضيع التى أثارت جدلا عنيفاً واستحقت الالتفات إليها ، ولم يشك أحد منهم فى أن البيت غير مترن ؛ وكان من رأى لادى اترورد أن الجياد تصلح من شأنه،فانه ما من بيت كريم إلا وكان الاصطبل من أثبت دعائمه. لاقى هذا القول القبول من الكابتن شاتوفر وقد استشهد بالسفينة التى مضى على ظهرها زهرة شبابه وقد أفادته فائدة عظمى، والجواد — فى نظره — سفينة البر...ثم يتطور الحديث حتى يصبح مانجان وزواجه من مواضيعه، ويرتاع الرجل لذلك ويحتج ولكن دون جدوى بل يبلغ الأمر بلادى اترورد أن تسأله عن مقدار ماله وتلح فى ذلك .. حتى يجيبها بأنه لامال له !.. ويبدو الجواب مضحكا غريباً، ولكنه يصر على أنه حقيقة بعيدة عن الشك ، وشرح ذلك أن أصحاب رءوس الأموال يمدونه بالمال، وهو يسخر فى عمله أمثال مازيني من السذج!

ويعود الحديث ليقف هنيهة أمام شعر لادى اترورد المصبوغ ! ويدهش مانجان لأنه كان

يعجب بهذا الشعر أيما إعجاب .. ويقوم كمن أصيب بمس، ويأخذ فى خلع ملابسه ليظهر أمام الجميع عاريا .وما العجب فى ذلك؟ أليسوا يمزقون الستر عن نفوسهم فتبدو عوراتها ؟فلم لا يفعل نفس الفعل بجسمه ؟ وهل يبدو هنا ما يثير الاشمئزاز أكثر مما يثيره كشف الستر عن خبايا النفوس ؟ ولكنهم يقفونه ويهددهم هو بأنهم لو عادوا لكشف عيوبهم سيشرع فى تعرية جسمه، فانه وإن كان طبيعياً أن تصبغ النساء شعورهن وأن يقر الرجال ذلك فالأمر غير الطبيعى أن يذيع واحد منهم هذه الأمور .

وهنا تتأمل إيلى ... كل شىء زائف خادع :هذه قصص هكتور،وهذه أموال مانجان،وذلك شعر مسز هاشباى،وذلك شعر لادى اترورد . ثم إنها تعلن بصراحة أنها لن تتزوج من مانجان لأنها تزوجت فى الواقع من شاتوفر وسجلت زواجها فى السماء حيث تمتزج النفوس الطاهرة!

وينور هكتور قائلا :إلى متى يجلسون ويتكلمون ويتركون مهام الأمور لأمثال مانجان، وهم كمن يترك للطفل طوربيداً، أليس لذلك من نهاية؟ ويقول الكابتن إن الربان السكير مكتوب على سفينته الهلاك ،وهكذا الحال فى سفينة انجلترا فالربان سكير والملاح مقامر،فهى لابد سائرة صوب الهلاك . . . والانجليزى الذى يحب الحياة ينبغى أن يتقن فن الملاحة !

وقبل أن يتم حديثه يدوى صوت انفجار فينذر الكابتن بالخطر المحدق بالسفينة ويفر كل من مانجان واللص إلى مكان أمين فيرميهما حظهما التعس إلى مكان بجانب ديناميت شوتوفر ، أما البقية فتبقى فى مكانها تترقب الأجل المحتوم . . . ويتكرر الانفجار ويذهب ضحيته ما نجان واللص ،وينجو من خطره الباقون ويعلن الكابتن أن السفينة نجت !

إيلى — بخيبة — « النجاة ! »

هكتور « نعم النجاة . . . والآن كيف رجعت الدنيا فجأة ملعونة غبية ؟ ! »

مازينى « كنت مخطئاً فى تقديرى . . فنحن الذين بقينا فى الحياة . . أما مانجان واللص . . . »

هكتور « اللصان . . »

لادى اترورد « الرجلان العمليان ! »

ويأخذ راندال فى العزف على الناى . . .

نجيب محفوظ